عنايتهم بأنفسهم ؛ لأنه سبحانه أَوْلَى بنا من أنفسنا ، ولكن نعلم الفرق بين الشيء في أيدينا والشيء في يده عز وجل .

ثم يقول تعالى : ﴿وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الانبياء] أي : لا يُخرِجنا شيء عمَّا وعدنا به ، ولا يخالفنا أحد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ[1] مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

والكَتْب : التسجيل ، لكن علم الله أزليٌّ لا يحتاج إلى تسجيل ، إنما التسجيل من أجلنا نحن حتى نطمئن ، كما لو أخذتَ من صاحبك قَرْضاً وبينكما ثقة ، ويأمن بعضكم بعضاً ، لكن مع هذا نكتب القَرْض ونُسجِّله حتى تطمئن النفس .

ومعنى : ﴿كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ .. ﴿١٠٥﴾﴾ [الانبياء] الزبور : الكتاب الذي أُنزل على نبي الله داود ، ومعنى الزبور : الشيء المكتوب ، فإنْ أطلقتَها على عمومها تُطلَق على كل كتاب أنزله الله ، ومعنى : ﴿مِن بَعْدِ الذِّكْرِ .. ﴿١٠٥﴾﴾ [الانبياء] الذكْر : يُطلَق مرة على القرآن ، ومرة على الكتب السابقة . وما دام الزبور يُطلَق على كل كتاب أنزله الله فلا بُدَّ أن للذكر معنى أوسع ؛ لذلك يُطلَق الذكر على اللوح المحفوظ ، لأنه ذكْر الذكر ، وفيه كل شيء .

فمعنى : ﴿كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ .. ﴿١٠٥﴾﴾ [الانبياء] أي : في الكتب التي

---

(١) الزبور والكتاب واحد ، ولذلك جاز أن يقال للتوراة والإنجيل زبور . وقال سعيد بن جبير : الزبور : التوراة والإنجيل والقرآن . (تفسير القرطبي ٤٥٢٩/٦) .

أُنزلَتْ على الأنبياء ما كتبناه فى اللوح المحفوظ ، أو ما كتبناه فى الزبور ، لا أنّ سيدنا داود أعطاه الله فوق ما أعطى الآخرين .

ومعنى : ﴿مِن بَعْدِ الذِّكْرِ .. (١٠٥)﴾ [الأنبياء] هذه تدل على أن واحداً أسبق من الآخر ، نقول : القرآن هو كلام الله القديم ، ليس فى الكتب السماوية أقدم منه ، والمراد هنا ﴿مِن بَعْدِ الذِّكْرِ .. (١٠٥)﴾ [الأنبياء] بعدية ذِكْرية ، لا بعدية زمنية .

فما الذى كتبه الله لداود فى الزبور ؟ كتب له ﴿أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥)﴾ [الأنبياء] كلمة الأرض إذا أُطلقَتْ عموماً يُراد بها الكرة الأرضية كلها .

وقد تُقيَّد بوصف معين.كما فى : ﴿الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ..(٢١)﴾ [المائدة] وفى : ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ .. (٨٠)﴾ [يوسف] أى : التى كان بها .

وهنا يقول تعالى : ﴿أَنَّ الأَرْضَ .. (١٠٥)﴾ [الأنبياء] أى : الأرض عموماً ﴿يَرِثُهَا .. (١٠٥)﴾ [الأنبياء] أى : تكون حقاً رسمياً لعبادى الصالحين . فأىُّ أرض هذه ؟ أهى الأرض التى نحن عليها الآن ؟ أم الأرض المبدلة ؟

ما دُمْنَا نتكلّم عن بَدْء الخَلْق وإعادته ، فيكون المراد الأرض المبدلَة المعادة فى الآخرة[1] ، والتى يرثها عباد الله الصالحون ، والإرْث هنا كما فى قوله تعالى : ﴿تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)﴾ [الأعراف]

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٥٣٠) : « أحسن ما قيل فيه أنه يُراد بها أرض الجنة كما قال سعيد بن جبير ؛ لأن الأرض فى الدنيا قد ورثها الصالحون وغيرهم . وهو قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما » .

فعن مَنْ ورثوا هذه الأرض ؟

الحق سبحانه وتعالى حينما خلق الخَلْق أعدَّ الجنة لتسعَ كلَّ بنى آدم إنْ آمنوا ، وأعدَّ النار لتسع كُلَّ بنى آدم إنْ كفروا ، فليس فى المسألة زحام على أيِّ حال . فإذا ما دخل أهلُ الجنة الجنةَ ، ودخل أهلُ النار النارَ ظلَّتْ أماكن أهل النار فى الجنة خالية فيُورثها الله لأهل الجنة ويُقسِّمها بينهم ، ويُفسح لهم أماكنهم التى حُرِم منها أهل الكفر .

أو نقول : الأرض يُراد بها أرض الدنيا[1] . ويكون المعنى أن الله يُمكِّن الصالح من الأرض ، الصالح الذى يَعْمُرها ولو كان كافراً ؛ لأن الله تعالى لا يحرم الإنسان ثمار عمله ، حتى وإنْ كان كافراً ، يقول تعالى ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى]

لكن عمارة الكفار للأرض وتكوينهم للحضارة سَرْعان ما تنزل بهم النكبات ، وتنقلب عليهم حضارتهم ، وها نحن نرى نكبات الأمم المرتقية والمتقدمة وما تعانيه من أمراض اجتماعية مستعصية ، فليست عمارة الأرض اقتصاداً وطعاماً وشراباً وترفاً . ففى السويد - مثلاً - وهى من أعلى دول العالم دَخْلاً ومع ذلك بها أعلى نسبة انتحار ، وأعلى نسبة شذوذ ، وهذه هى المعيشة الضَّنْك التى تحدَّث عنها القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه]

فالضَّنْك لا يعنى فقط الفقر والحاجة ، إنما له صور أخرى كثيرة .

---

(١) عن ابن عباس : إنها أرض الأمم الكافرة ، ترثها أمة محمد ﷺ بالفتوح [تفسير القرطبى ٦ / ٤٥٣٠] .

إذن : لا تَقِسْ مستوى التحضُّر بالماديات فحسب ، إنما خُذْ فى حُسْبانك كُلَّ النواحى الأخرى ، فمَنْ أتقن النواحى المادية الدنيوية أخذها وترف بها فى الدنيا ، أمَّا الصلاح الدينى والخُلقى والقِيَمى فهو سبيل لترف الدنيا ونعيم الآخرة .

وهكذا تشمل الآية : ﴿يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الانبياء] الصلاح المادى الدنيوى ، والصلاح المعنوى الأخروى ، فإنْ أخذتَ الصلاح مُطلقاً بلا إيمان ، فإنك ستجد ثمرته إلى حين ، ثم ينقلب عليك ، فأين أصحاب الحضارات القديمة من عاد وثمود والفراعنة ؟

إن كُلَّ هذه الحضارات مع ما وصلتْ إليه ما أمكنها أن تحتفظ لنفسها بالدوام ، فزالتْ وبادتْ .

يقول تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى الْبِلادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى الأَوْتَادِ ﴿١٠﴾﴾ [الفجر]

إنها حضارات راقية دُفنَتْ تحت أطباق التراب ، لا نعرف حتى أماكنها . أمَّا إنْ أخذت الصلاح المعنوى ، الصلاح المنهجى من الله عز وجل فسوف تحوز به الدنيا والآخرة ؛ ذلك لأن حركة الحياة تحتاج إلى منهج يُنظِّمها : افعل كذا ولا تفعل كذا . وهذا لا يقوم به البشر أمَّا ربُّ البشر فهو الذى يعلم ما يُصلحهم ويُشرِّع لهم ما يُسعدهم .

إن منهج الله وحده هو الذى يأمرنا وينهانا ، ويخبرنا بالحلال والحرام ، وعلينا نحن التنفيذ ، وعلى الحكام وأولياء الأمر الممسكين بميزان العدل أنْ يراقبوا مسألة التنفيذ هذه ، فيُولُّوا مَنْ يصلُح للمهمة ، ويقوم بها على أكمل وجه ، وإلا فسد حال المجتمع ، الحاكم

يُشرف ويُراقب ، يُشجِّع العامل ويُعاقب الخامل ، ويضع الرجل المناسب في مكانه المناسب .

فعناصر الصلاح في المجتمع : علماء يُخططون ، وحكام يُنفِّذون ، ويديرون الأمور ، وكلمة حاكم مأخوذة من الحكَمة (بالفتح) وهي : اللجام الذي يكبح الفَرس ويُوجِّهها .

لذلك جاء في الحديث الشريف : « مَنْ ولَّى أحداً على جماعة ، وفي الناس خير منه لا يشم رائحة الجنة »[1] .

لماذا ؟ لأن ذلك يُشيع الفساد في الأرض ، ويُثبِّط العزائم العالية والهمم القوية حين ترى مَنْ هو أقلّ منك كفاءة يتولّى الأمر ، وتُستبعد أنت . أما حين تعتدل كفّة الميزان فسوف يجتهد كُلٌّ منّا ليصل إلى مكانه المناسب .

إذن : مهمة الحكام وولاة الأمر ترقية المجتمع ، فلا نقول لحاكم مثلاً يُعدُّ لنا طعاماً ، أو يصنع لنا آلة ، فليستْ هذه مهمته ، ولقد رأينا أحد الأمراء وكان له أرض يزرعها ، يتولاها أحد الموظفين يقولون له (الخُولي) ومهمة الخولي الإشراف والمراقبة .

وفي يوم جاء الأمير ليباشر أرضه ويتفقد أحوالها في صُحْبة الخولي ، وفي أثناء جولتهما بالأرض رأى الخولي قناةً ينسابُ منها الماء حتى أغرق الزرع فنزل وسدَّ القناة بنفسه .

وعندها غضب الأمير وفصله من عمله ؛ لأنه عمل بيده في حين أن مهمته الإشراف ولديه من العمال مَنْ يقوم بمثل هذا العمل .

---

(١) عن أبي بكر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من ولي من أمر المسلمين شيئاً فأمَّر عليهم أحداً محاباة فعليه لعنة الله لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً حتى يدخله جهنم » أخرجه أحمد في مسنده (٦/١) .

لكن ، لماذا هذه النظرة في إدارة الأعمال ؟ قالوا : لأنك إنْ عملتَ بيدك فأنت واحد ، لكن إنْ أشرفتَ فيمكن أنْ تُشرف على آلاف من العمال . ومن هنا جاءت مسألة التخصُّص في الأعمالَ .

وعلى الحاكم ووليِّ الأمر أنْ يحافظ على منهج الله ، ويتابع تطبيق الناس له ، فيقف أمام أي فساد ، ويأخذ على يد صاحبه ، ويثيب المجتهد العامل ، كما جاء في قوله تعالى في قصة ذي القرنين :

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨)﴾ [الكهف]

ذلك ، لأن الله تعالى يزَعُ بالسلطان مَا لا يزع بالقرآن ، ولو تركنا أهل الفساد والمنحرفين لجزاء القيامة لفسد المجتمع ، لا بُدَّ من قوة تصون صلاح المجتمع ، وتضرب على أيدي المفسدين ، لا بُدَّ من قوة تمنع مَنْ يتجرؤون علينا ويطالبون بتغيير نظامنا الإسلامي .

لذلك يقول تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ .. (٦٠)﴾ [الأنفال] لا بُدَّ أن يعلم العدو أن لديك الرادعَ الذي يَردعه إنِ اعتدى عليك أو حاول إفساد صلاح المجتمع .

لذلك ، فالنبي ﷺ يقول في الحديث[1] إن السهم الذي يُرمى في سبيل الله ، لكل مَنْ شارك في إعداده ورميه جزء من الثواب ، فالذي قطعه من الشجرة والذي براه ، والذي وضعه في القوس ورمى به ؛ لأن في ذلك صيانةً للحق وصيانة للصلاح حتى يدوم ، ولا يفسده أحد .

---

(١) عن عقبة بن عامر قال قال ﷺ : « إن الله عز وجل يُدخل الثلاثة بالسهم الواحد الجنة : صانعه يحتسب في صنعه الخير ، والممد به ، والرامي به » أخرجه الدارمي في سننه (٢/٢٠٤) والترمذي في سننه (١٦٣٧) ، وابن ماجه في سننه (٢٨١١) .

والمسئولية هنا لا تقتصر على الحكام وولاة الأمر ، إنما هى مسئولية كل فرد فيمن ولى أمراً من أمور المسلمين ، كما جاء فى الحديث : « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته : فالأمير الذى على الناس راعٍ وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راعٍ على أهل بيته وهو مسئول عنهم ، والمرأة راعية على بيت بَعْلها وولده وهى مسئولة عنهم ، والعبد راعٍ على مال سيده وهو مسئول عنه ، ألا فكلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته »(1) .

وعلى العامل ألاَّ ينظرَ إلى مراقبة صاحب العمل ، وليكُنْ هو رقيباً على نفسه ، والله عز وجل يراقب الجميع ، وقد جاء فى الحديث القدسى « إن كنتم تعتقدون أنِّى لا أراكم فالخَلل فى إيمانكم ، وإنْ كنتم تعتقدون أنِّى أراكم فَلِمَ جعلتمونى أهونَ الناظرين إليكم ؟ » .

والمتأمل فى حركة الحياة يجدها متداخلة ، فمثلاً لو أردتَ بناء بيت ، فالهندسة حركة ، والبناء حركة ، والكهرباء حركة ، والنجارة حركة ، وهكذا .. ، فلو قلنا : إن هذا العمل يتكون من مائة حركة مثلاً ، فإنك لا تملك منها إلا حركة واحدة هى عملك الذى تتقنه ، والباقى حركات لغيرك ، فإنْ أخلصتَ فيما للناس عندك ألهمهم الله أنْ يخلصوا لك ولو عن غير قصد ، فأنت أخلصتَ وأتقنتَ حركة واحدة ، وأخلص الناس لك فى تسع وتسعين حركة .

واعلم أن الخواطر والأفكار بيد الله سبحانه ، فإنْ راقبتَ الله فيما للناس عندك راقبهم الله لك فيما لك عندهم ، وكفاك مُؤْنة المراقبة ، فقد يصنع لك الصانع شيئاً ، ويريد أنْ يغشَّك فيه فيحول الله بينه وبين

(1) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٨٢٩) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما ، وأحمد فى مسنده (٢/٥٤ ، ١١١) ، والبخارى فى صحيحه (٢٤٠٩) .

هذا ؛ ربما يجلس معه أحد معارفه فيستحى أن يغش أمامه ، أو لا يجد الشىء الذى يغشك به ، أو غير ذلك من الأسباب التى يُسخِّرها الله لك ، فيتقن لك الصانع صَنْعته ، ولو رَغْماً عن إرادته .

إذن : إن أردتَ صلاحَ أمرك فأصلح أمور الآخرين .

ومن الأساسيات التى نُصلح بها ونرث الأرض أن ننظر إلى الناس جميعاً على أنهم سواسية ، لا فضلَ لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح ، فليس فينا مَنْ هو ابن لله عز وجل ، وليس منا مَنْ بينه وبين الله قرابة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ .. (١٣) ﴾ [الحجرات]

والإسلام لا يعرف الطبقية إلا فى إتقان العمل ، فقيمة كل امرىء ما يُحسنه ، وقد ضربنا لذلك مثلاً ، وما نزال نذكره مع أنه لرجل غير مسلم ، إنه رجل فرنسى كان نقيباً للعمال ، وكان يدافع عن حقوقهم ، ويطلب لهم زيادة الدَّخْل من ميزانية الوزارة ، فلما تولى منصب الوزارة وتولى المسئولية عدلَ عمَّا كان يطالب به ، فضجَّ العمال ، وأراد أحدهم أنْ يغيظه فقال له : اذكر يا معالى الوزير أنك كنت فى يوم من الأيام ماسح أحذية ، فما كان من الرجل إلا أن قال : نعم .. لكنى كنت أجيدها .

وسبق أن ذكرنا أن الله تعالى وزَّعَ المواهب والقدرات بين خَلْقه ، فساعة ترى نفسك مُميزاً على غيرك فى شىء فلا تغتر به ، وابحثْ فيما مُيِّز به عنك غيرُك ؛ لأننا جميعاً عند الله سواء ، لا يحابى منا أحداً على أحد ، فأنت مُميز بعلمك أو قوتك ، وغيرك أيضاً مُميز فى سعادته مع أهله أو فى أمانته وثقة الناس به ، أو فى رضاه بما قسم له أو فى مقدرته على نفسه ورضاه بالقليل ، وقد يُميَّز الواحد منَّا بالولد الصالح الذى يكون مطْواعاً لأبيه ، وقُرة عيْن له .

إذن : هذه مسألة مُقدّرة محسوبة ؛ لأن ربك سبحانه قيُّوم عليك ، لا تخفى عليه منك خافية ، وحين يُميِّز بعضنا على بعض إنما ليدكَّ فينا الغرور والكبرياء ، وينزع من قلوبنا الحقْد والغلَّ ، وهكذا يتوازن المجتمع، ولا يكون التميز مثار حقد ؛ لأنَّ تميزَ غيرك لصالحك ، وسيعود عليك .

والحق - سبحانه وتعالى - يُحدِّثنا عن يوم القيامة ، وكيف أن الشمس ستدنو من الرؤوس ، ويشتدّ بالناس الكرب ، إلا هؤلاء الذين يُظلُّهم الله فى ظلّه يوم لا ظل إلا ظله ، ذلك لأنهم كانوا مظلة أمان فى الدنيا ، فأظلَّهم الله فى الآخرة .

كما جاء فى الحديث الشريف : « سبعة يُظلهم الله فى ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه : إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه مُعلَّق فى المَساجد ، ورجلان تحابّا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه »[1] .

نعم ، لقد صنع هؤلاء بسلوكهم القويم مظلّة أمانٍ فى الكون ، فاستحقوا مظلّة الله فى الآخرة . وبمثل هؤلاء يتوازن المجتمع المسلم ويَرْقَى إلى القمة ، هذا المجتمع الذى نريده هو مجتمع غنيّه متواضع ، وفقيره كريم شريف ، وشابُّه طائع .

يقول رب العزة سبحانه فى الحديث القدسى : « أحب ثلاثة وحبِّى لثلاثة أشدُّ - فهؤلاء ستة نقسمهم إلى قسمين - أحب الفقير

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٦٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٠٣١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

المتواضع ، وحُبِّى للغنى المتواضع أشد - لأن عنده أسبابَ الكبر ومع ذلك يتواضع - وأحب الغنىَّ الكريم وحُبِّى للفقير الكريم أشدّ ، وأحب الشيخ الطائع وحبى للشاب الطائع أشدُّ » .

« وأكره ثلاثة وكُرْهى لثلاثة أشد : أكره الغنى المتكبر ، وكُرْهى للفقير المتكبر أشدّ ، وأكره الفقير البخيل ، وكُرْهى للغنى البخيل أشد ، وأكره الشاب العاصى وكرهى للشيخ العاصى أشد » .

هؤلاء اثنا عشر نوعاً : ستة فى المحبوبية ، وستة فى المكروهية ، وكلما التزمنا بتطبيق هذا المنهج وجدنا مجتمعاً راقياً من الدرجة الأولى .

﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

البلاغ : الشىء المهم الذى يجب أن يعلمه الناس ؛ لذلك حين ينشغل الناس بالحرب ، وينتظرون أخبارها تأتيهم على صورة بلاغات ، يقولون : بلاغ رقم واحد ، لأنه أمر مهم .

فقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا .. ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : أن ما جاء به القرآن هو البلاغ الحق ، والبلاغ الأعلى الذى لم يترك لكم عذراً ، ولا لغفلتكم مجالاً ، ولا لمستدرك أنْ يستدرك عليه فى شىء . فهو مُنْتهى ما يمكن أنْ أخبركم به .

وهو بلاغ لمن ؟ ﴿ لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : يتلقفون مُرادَ الله لينفذوه ، سواء أكان أمراً أمْ نَهياً .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

وما دام ﷺ خاتَم الرسل ، وبعثتُه للناس كافة ، وللزمن كله إلى أنْ تقوم الساعة . وقد جاء الرسل السابقون عليه لفترة زمنية

محددة ، ولقوم بعينهم ، أما رسالة محمد ﷺ فجاءتْ رحمةً للعالمين جميعاً ؛ لذلك لا بُدَّ لها أنْ تتسعَ لكل أقضية الحياة التى تعاصرها أنت ، والتى يعاصرها خَلَفُك ، وإلى يوم القيامة .

ومعنى : العالمين ، كُلُّ ما سوى الله عز وجل : عالم الملائكة ، وعالم الجن ، وعالم الإنس ، وعالم الجماد ، وعالم الحيوان ، وعالم النبات . لكن كيف تكون رسالة محمد ﷺ رحمةً لهم جميعاً ؟

قالوا : نعم ، رحمة للملائكة ، فجبريل ـ عليه السلام ـ كان يخشى العاقبة حتى نزل على محمد قوله تعالى : ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ ⦗٢٠⦘﴾ [التكوير] فاطمأن جبريل عليه السلام وأَمِن .

ورسول الله ﷺ رحمة للجماد ؛ لأنه أمرنا بإماطة الأذى عن الطريق . وهو رحمة بالحيوان . وفى الحديث الشريف : « ما من مسلم يزرع زَرْعاً ، أو يغرس غَرْساً فيأكلَ منه طيْرٌ أو إنسان أو بهيمة ، إلا كان له به صدقة »[1] .

وحديث المرأة التى دخلتْ النار فى هرَّة حبستْها ، فلا هى أطعمتْها وسقتْها ، ولا هى تركتها تأكل من خَشَاش الأرض[2] .

وحديث الرجل الذى دخل الجنة ؛ لأنه سقى كلباً كان يلهث يأكل الثرى من شدة العطش ، فنزل الرجل البئر وملأ خُفَّه فسقى الكلب ، فشكر الله له وغفر له ، لأنه نزل البئر وليس معه إناء يملأ به الماء ،

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٣٢٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٥٥٣) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٢) عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ عن النبى ﷺ قال : « دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها ، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣/٨) قال ابن حجر فى الفتح (٣٥٧/٦) : « المراد (بخشاش الأرض) هوام الأرض وحشراتها من فأرة ونحوها » .

فاحتال للأمر ، واجتهد ليسقى الكلب[(١)] .

وهكذا نالتْ رحمة الإسلام الحيوان والطير والإنسان ، ففى الدين مبدأ ومنهج يُنظِّم كل شىء ولا يترك صغيرة ولا كبيرة فى حياة الناس ؛ لذلك فهو رحمة للعالمين .

فقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ [الانبياء] يعنى أن كل ما يجىء به الإسلام داخل فى عناصر الرحمة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٨) ﴾

فالوحدانية هى أول رحمة بنا ، أن نكون كلنا سواء ، ليس لنا إلا إله واحد ، هذه من أعظم رحمات الله أن نعبده وحده لا شريكَ له ، فعبادته تُغنينا عن عبادة غيره ، ولو كانت آلهةٌ متعددة لأصابتنا الحيرة بين إله يأمر ، وإله ينهى .

لذلك ؛ فالحق - سبحانه وتعالى - يطلب منا أنْ نعتزَّ وأنْ نفخَر بهذه الوحدانية ، وبهذه الألوهية ، وفى هذا يقول الشاعر الإسلامى محمد إقبال :

والسُّجود الذى تَجْتويه ... منْ أُلوف السُّجود فيه نَجَاةُ

(١) عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل بها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ بى ، فنزل البئر فملأ خُفَّه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له ، قالوا : يا رسول الله وإن لنا فى البهائم أجراً ؟ فقال : فى كل ذات كبد رطبة أجر ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٠٩) .

فسجودك لله وتعفير وجهك له سبحانه يحميك من السجود لغيره ، ولولا سجودك لله لَسجدت لكل مَنْ هو أقوى منك ، فعليك - إذن - أن تعتز بعبوديتك لله ؛ لأنها تحميك من العبودية لغيرك من البشر ، وحتى لا يقول لك شخص أنت عبد ، نعم أنا عبد لكن لستُ عبداً لك ، فعبد غيرك حُرٌّ مثلك .

وقد ضرب لنا الحق سبحانه مثلاً في هذه المسألة في قوله تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً .. (٢٩)﴾ [الزمر]

فهل يستوى عبد لعدة أسياد يتجاذبونه فى وقت واحد ، وهم مع ذلك مختلفون بعضهم مع بعض ، وعبد سَلَماً لسيد واحد ؟

وهكذا ، نحن جميعاً عبيد لله - عز وجل - حين نخضع لا نخضع إلا له سبحانه ، فلا أخضع لك ولا تخضع أنت لى ؛ لذلك يقولون « اللى الشرع يقطع صباعه ميخرش دم » لأنه أمر من أعلى ، من السماء ، لا دَخْلَ لأحد فيه .

لذلك ؛ فالعبودية تُكره حين تكون عبوديةً للبشر ، لأن عبودية البشر للبشر يأخذ السيد خير عبده ، أما العبودية لله فيأخذ العبد خير سيده .

والشاعر[(١)] يقول :

حَسْبُ نفسى عِزّاً بأنّى عَبْدٌ ... يحتفى بى بِلاَ مواعيدَ رَبُّ
هُوَ فى قُدْسِه الأعزُّ ولكنْ ... أنا ألْقَى متى وأيْنَ أحِبُّ

ولك أنْ تقارن بين مقابلة عظيم من عظماء الدنيا ، ومقابلة ربك عز وجل . فإنْ أردتَ الدخولَ على أحد هؤلاء لا بُدَّ أن تطلب المقابلة ،

(١) من شعر الشيخ رضى الله عنه .

ويا ترى تقبل أم ترفض ، وإنْ قبلت فلا تملك من عناصرها شيئاً ، فالزمان ، والمكان ، وموضوع الكلام . كلها أمور يحددها غيرك .

أما إن أردتَ مقابلة ربك - عز وجل - فما عليك إلا أنْ تتوضأ وترفع يديك قائلاً : الله أكبر بعدها ستكون في معية الله ، وقد اخترتَ أنت الزمان ، والمكان ، وموضوع الحديث ، وإنهاء اللقاء .

ألاَ ترى كيف امتنَّ الله تعالى على رسوله في رحلة « الإسراء والمعراج » بأنْ وصفه بالعبودية له سبحانه ، فقال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. ۝١ ﴾ [الإسراء] إذن : جاء قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ .. ۝١٠٨ ﴾ [الأنبياء] بعد قوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ۝١٠٧ ﴾ [الأنبياء] ليدلنا : أن دعوة الله لنا إلى عبادة إله واحد ترحمنا من عبوديتنا بعضنا لبعض .

ثم يُرغِّبنا الحق سبحانه في هذه العبودية ، فيقول : ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٠٨ ﴾ [الأنبياء] كما تحث ولدك المتكاسل أن يكون مثلَ زميله الذي تفوَّق ، وأخذ المركز الأول ، فتقول له : ألاَ تذاكر وتجتهد حتى تكون مثله ؟

وهكذا في ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٠٨ ﴾ [الأنبياء] أي : مسلمون لله ؛ لأن مصلحتكم في الإسلام وعزّكم في عبوديتكم لله .

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ(١) عَلَىٰ سَوَاءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ۝١٠٩ ﴾

---

(١) آذنه الأمر ، وآذنه به : أعلمه ، وآذنتك بالشيء : أعلمتكه . [لسان العرب - مادة : أذن] .

﴿فَإِن تَوَلَّوْا .. ١٠٩﴾ [الانبياء] يعنى : أعرضوا وانصرفوا ﴿فَقُلْ آذَنتُكُمْ .. ١٠٩﴾ [الانبياء] مادة : أذن ومنها الأذان تعنى الإعلام بالشيء ، والأصل فى الإعلام كان فى الأُذُن بالكلام ، حيث لم يكُنْ عندهم قراءة وكتابة ، فاعتمد الإعلام على الكلام والسماع بالأذن ، فمعنى : ﴿آذَنتُكُمْ .. ١٠٩﴾ [الانبياء] أعلمتكم وأخبرتكم .

وقوله تعالى : ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ .. ١٠٩﴾ [الانبياء] يعنى : جاء الإعلام لكم جميعاً لم أخصّ أحداً دون الآخر ، فأنتم فى الإعلام سواء ، لا يتميز منكم أحد على أحد ؛ لذلك كان النبى ﷺ يحرص على إبلاغ الجميع ، فيقول :

« نضَّر الله امْرأ سمع مقالتى فوعاها ، ثم أدَّاها إلى مَنْ لم يسمعها ، فرُبَّ مبلَّغ أوعى من سامع »[1] وهكذا يشيع الخيْر ويتداول بين الجميع .

﴿فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ .. ١٠٩﴾ [الانبياء] فلم أُعْلِم قوماً دون قوم ، ولم أُسْمِع أذناً دون أذن ، وجعلت من كمال الإيمان أن يخبر السامع مَنْ لم يسمع ؛ لأنه لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه .

ثم يُنبِّههم إلى أمر الساعة : ﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ١٠٩﴾ [الانبياء] فانتبهوا وخُذوا بالكم ، واحتاطوا ، فلا أدرى لعلَّ الساعةَ تكون قريباً ، ولعلها تفاجئكم قبل أنْ أنهى كلامى معكم .

لذلك ؛ لما سألوا أحد الصالحين : فيمَ أفنيتَ عمرك ؟ قال :

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١/٤٣٧) والترمذى فى سننه (٢٦٥٧ ، ٢٦٥٨) وابن ماجة فى سننه (٢٣٢) والحميدى فى مسنده (١/٤٧) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

« أفنيتُ عمرى فى أربعة أشياء : علمت أنى لا أخلو من نظر الله طَرْفة عين فاستحييتُ أنْ أعصيه ، وعلمتُ أن لى رزقاً لا يتجاوزنى قد ضمنه الله لى فقنعتُ به ، وعلمتُ أن علىَّ دَيْناً لا يؤديه عنى غيرى فاشتغلتُ به ، وعلمتُ أن لى أجَلاً يبادرنى فبادرتُه » .

إذن : فالمراد : استعدوا لهذه المسألة قبل أن تفاجئكم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

وما دام ربك - عز وجل - يعلم الجهر ويعلم السرَّ وأخفى ، فإياك أنْ تنافق ؛ لأننا ننهاك عن النفاق مع البشر ، فمن باب أوْلَى أن ننهاك عن نفاق ربك سبحانه الذى يعلم سرَّك كما يعلم علانيتك ، وقصارى أمر البشر أنْ يُراقبوا علانيتك . لذلك ، فإن كل احتياطات أهل الإجرام التخفِّى عن أعين الدولة ، والهرب من مراقبة الشرطة ، لكن كيف التخفى عن نظر الله وعلمه ؟

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [الأنبياء] يُعلِّمنا الأدب حتى فيما نكتم ، فالأدب فى الجهر من باب أوْلَى ، ونحن مؤمنون بأن الله سبحانه غَيْب غير مشهد ، وهَبْ أنك فى بيتك تعلم كل شىء فيه ؛ لأنه مشهد لك ، أمّا ما كان خارج البيت فهو غَيْب عنك لا تعلمه ، أمّا الحق سبحانه فهو غَيْب يعلم كل مَشْهَد وكل غيب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ ﴾

أى : لعل الإمهال وبقاءكم دون عذاب وتباطؤ الساعة عنكم فتنة واختبار ، يا ترى أتوفقون وتفوزون فى هذا الاختبار ، كما قال سبحانه فى موضع آخر :

﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) ﴾ [التوبة]

وقال تعالى : ﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٧٨) ﴾ [آل عمران]

وقوله تعالى : ﴿ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (١١١) ﴾ [الأنبياء] أى : لن يدوم هذا النعيم وهذا المتاع ؛ لأن له مدة موقوتة .

ثم يقول الحق سبحانه فى ختام سورة الأنبياء :

﴿ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ(١) وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١١٢) ﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ .. (١١٢) ﴾ [الأنبياء] كما دعا بذلك الرسل السابقون : ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ(٢) بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) ﴾ [الأعراف]

---

(١) قال قتادة : كانت الأنبياء تقول ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ .. (٨٩) ﴾ [الأعراف] فأمر النبى ﷺ أن يقول : ﴿ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ .. (١١٢) ﴾ [الأنبياء] فكان إذا لقى العدو يقول - وهو يعلم أنه على الحق وعدوه على الباطل - ﴿ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ .. (١١٢) ﴾ [الأنبياء] أى : اقض به . ذكره القرطبى فى تفسيره (٤٥٣٢/٦) والسيوطى فى الدر المنثور (٦٨٩/٥) وعزاه لابن أبى حاتم .

(٢) أى : انصرنا عليهم ، ويجوز أن يكون المعنى : ربنا افتح بيننا وبين قومنا باب التفاهم والمحبة بالحق حتى يؤمنوا ويتركوا عنادهم . [القاموس القويم ٧٠/٢] .

وهل يحكم الله سبحانه إلا بالحق ؟ قالوا[1] : الحق سبحانه يُبيِّن لنا ؛ لأننا عشْنا فى الدنيا ورأينا كثيراً من الباطل ، فكأننا لأول مرة نسمع الحكمَ بالحق .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : المستعان على ما تُجرمون فيه من نسبتنا إلى الجنون ، أو إلى السحر .. الخ .

وتلاحظ أن الحق سبحانه فى آيات سورة الأنبياء تكلم عن طَىِّ السماء كطىِّ السجل للكتب ، ثم قال ﴿ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ .. ﴿١١١﴾ ﴾ [الأنبياء] ﴿ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ ﴾ [الأنبياء] ، ثم قال : ﴿ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ .. ﴿١١٢﴾ ﴾ [الأنبياء]

هذا كله ليُقرِّب لنا مسألة الساعة وقيامها ، ويُعِدُّنا لاستقبال « سورة الحج » .

---

(١) قاله ابن عباس فيما أخرجه عنه ابن جرير الطبرى وابن المنذر ، أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/٦٨٩) قال : لا يحكم الله إلا بالحق ، ولكن إنما يستعجل بذلك فى الدنيا يسأل ربه على قومه .




سُورَةُ الحَجِّ